المجمع العلمي العراقي

بغداد

# مجلة المجمع العلمي

# مجلة المجمع العلمي

فصلية محكمة أنشئت سنة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م

الجزء الأول . المجلد الثاني والستون

١٤٣٦هـ = ٢٠١٥م

شبكة كتب الشيعة

shiabooks.net

mktba.net < رابط بديل

# رحلـة ابـن جُبيـر

**الدكتور أحمد مطلوب**
رئيس المجمع العلمي

الملخص :

الرحلـة ثقافـة ومتعـة واستكشـاف ، وقد قـام بهـا الانسـان منـذ عهـود سحيقة ، وقد تعرضت هذه الورقة لمعنى الرحلة وبعض من قام بها ودونـها ومنـهم ابن جبير ، الذي قام بثلاث رحلات الى المشرق من مدينـة غرناطـة الأندلسـية . وفـي الرحلـة الأولـى وصـف معظـم المـوانئ والمـدن والقـرى والأماكن التي مرَّ بهـا مبحرا في البحـر المتوسـط أو مجتـازا مصـر والحجـاز والعراق والشام .

حـاولـت هـذه الورقـة أن تقـف علـى أهـم الملامـح وهـي الوصـف والمصاعب التي اعترضته والمواقف التي افتقدت المعنـى الانسـاني ، وكـان للملامح الاجتماعية والاقتصادية وقفة كشفت عما كانت عليه البلدان التـي زارها فـي أواخـر القـرن السـادس واوائـل القـرن السـابع الـهجريين ، وبـذلك قدمت هذه الرحلة معلومات قد تفتقر اليها الكتب التي تحدثت عن البلدان وملامحها الاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك من أمور .

## ( ١ )

الرحلة : هي الانتقال من مكان الى مكان ، وقد تقصر ، وقد تطول ، والأصل من (( ارتحل البعير رِحلةً : سار فمضى ، ثم جرى ذلك في المنطلق حتى قيل : (( ارتحل القوم من المكان ارتحالا )) ورحل عن المكان يرحل وهو راحل ، والترحل والارتحال : الانتقال )) .

الرحلة قائمة منذ عهود سحيقة إذ كان الانسان ينتقل من مكان الى مكان ، وقد يستقر في غير موطنه إذا طابت له الحياة فيه ، فيكون رَحْلُه هناك أي مسكنه .

من أقدم الرحلات وأوثقها رحلة – نوح ( عليه السلام ) – فقد ضاق ذرعا بقومه ، ولم تنفع معهم العظة ، والنصح ، والارشاد ، وتمادوا في غيهم ، فما كان لهم إلا عقابُ الله – سبحانه وتعالى – وهو الطوفان ، وأمره أن يتهيأ لليوم الموعود قائلا له : **(( وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ )) ( هود ٣٧ ) – (( فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ )) ( المؤمنون ٢٧ ) .**

فار التنور وطغى الماء ، وسارت السفينة حتى إذا وصلت الى ما أراد الله . قال سبحانه : **(( وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ )) ( هود ٤٤ )**

وقال له : **(( اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ )) ( هود ٤٨ ).**

ورحلة ( ابراهيم ) وابن أخيه ( لوط ) – عليهما السلام – من ( أور – العراق ) الى الشام ، ثم رحلة ( ابراهيم ) الى مصر ، ثم الى ( مكة المكرمة ) حيث أودع أسرته هاجر وابنها اسماعيل ، قال تعالى على لسانه : **(( رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ )) ( ابراهيم ٣٧ )**. وأمره أن يطهر الكعبة : **(( وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ، وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ )) ( الحج ٢٦-٢٧ )**. وعهد الله اليه والى ولده ( اسماعيل ) تطهير البيت : **(( وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ )) ( البقرة ١٢٥ ).**

وضاقت الحياة بالنبي ( لوط ) وأمره الله أن يرتحل بعد أن نصح قومه **(( أَلَا تَتَّقُونَ ؟ ))** ولكنهم قالوا له : **(( لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ))** ونجاه الله وأهله إلّا **(( عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ))** ودمر الآخرين وأمطر **(( عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ )) ( الشعراء ١٦١ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٣ ).**

وكانت الهجرة أو الرحلة معروفة لدى العرب قبل الاسلام ، وكانت لقريش رحلة الشتاء الى اليمن ، ورحلة الصيف الى الشام **((لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ، إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ)) (قريش ١-٢)** .

ورحلت بعض القبائل الى شمال افريقية واستقرت هناك ، وكان بعضها يرحل من مكان الى مكان طلبا للكلأ ، أو حفاظا على النفس من غزو أو قتال .

ورحل الشعراء قبل الاسلام طلبا للجاه والمال وغير ذلك ، فقد رحل امرؤ القيس الى ( قيصر الروم ) ليأخذ له بثأر أبيه ، ولما طال به الطريق قال :

بكى صاحبي لما رأى الدربَ دونه وأيقن أنا لاحقانِ بقيصرا

فقلت له لا تبكِ عينك إنما نحاول مُلْكا أو نموت فنعذرا

ورحل النابغة الذبياني الى الشام ، وأعشى قيس الى اليمن ، وطرفة بن العبد الى البحرين وهناك قُتل . ورحل حسان بن ثابت الى الشام ، وفعل بعده الفرزدق وجرير مثل ذلك ، فكانا يرتحلان الى خلفاء بني أمية .

ازدادت الرحلات بعد الفتوحات الاسلامية ، ووصل بعضهم الى أقصى البلاد ، وظهر رحالة عُرفوا بما قدموا من أدب الرحلات مثل سليمان التاجر ، واليعقوبي ، وابن فضلان ، وابن حوقل ، وابن البيروني ، وابن بطلان ، وابن خلدون .

وكانت تلك الرحلات إما طلبا للعلم ، أو للعمل ، أو نشر الدين الاسلامي أو للتجارة أو للحج ، أو لاستكشاف معالم الحياة في البيئات المختلفة .

وكان عدد الرحالة يزداد كلما تقدم الزمن ، وقد عقد احمد بن محمد المقّري التلمساني ( -١٠٤١هـ ) الباب الخامس من كتابه ( نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ) للتعريف ببعض مَنْ رحل من الاندلسيين الى بلاد المشرق ، وذكر منهم ثلثمائة وسبعة راحل ، وعقد الباب السادس في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق وذكر منهم ستة وثمانين ، ومنهم ابن جبير ، وهو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد الكناني الشاطبي البلنسي الأندلسي ، ولد في ( بلنسية ) ليلة السبت العاشر من ربيع الأول سنة أربعين وخمسمائة للهجرة ، وسمع من أبيه بشاطبة ، ومن أبي الحسن بن أبي العيش ، وأخذ عنه القراءات ، ومن عدد كبير من العلماء ، وحين علا صيته واشتهر أخذ عنه الكثيرون .

كان من علماء الأندلس بالفقه والحديث ، والمشاركة في الآداب ، وتقدم في صناعة الكتابة ، ونال بها دنيا عريضة ، ثم رفضها ، وزهد فيها . وكان أديبا بارعا شاعرا مجيدا ، فاضلا ، نزيه الهمة ، سريّ النفس ، كريم الأخلاق ، من أهل المروءات ، عاشقا في قضاء الحوائج والسعي في حقوق الاخوان ، والمبادرة لايناس الغرباء ، وفي ذلك يقول :

يحسب الناس بأني مُتْعَبُ ... في الشفاعات وتكليف الورى
والذي يُتعبني من ذاك لي ... راحة في غيرها لن أفكرا
وبودي لو أقضي العمر في ... خدمة الطلاب حتى في الكرى

من تصانيفه نظمه وسماه ( نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح ) في مراثي زوجته ( أم المجد ) وجزء سماه ( نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان ) ، وله ترسل ، وحكم ، كتاب رحلته .

من شعره

غريب تذكر أوطانه    فهيج بالذكر أشجانه
يحل عرى صبره بالأسى    ويعقد بالنجم أجفانه

ولما وصل الى ( مكة المكرمة ) في الثالث عشر من ربيع الآخر سنة تسع وسبعين وخمسمائة ؛ أنشد قصيدته التي أولها :

بلغتُ المنى وحللتَ الحرم :    فعاد شبابك بعد الهرم
فأهلا بمكة ، أهلا بها    وشكرا لمن شكره يلتزم

ولما رأى البيت الحرام قال :

بدت ليَ أعلام بيت الهدى    بمكة والنور بادٍ عليه
فأحرمتُ شوقا له بالهدى    وأهديت قلبيَ هديا اليه

ولما وصل الى ( بغداد ) تذكر بلده فقال :

سقى الله ( باب الطوق ) صَوْبَ غمامةٍ ورَدَّ الى الأوطان كلَّ غَريبِ

وقطع غصنا نضيرا من أحد بساتين ( بغداد ) فذوى في يده وقال :

لا تغتربْ عن وطنٍ    واذكر تصاريفَ النوى
أما ترى الغصنَ إذا    ما فارقَ الأصلَ ذَوى

ومن شعره في جارية تركها بغرناطة :

طـولُ اغتـراب وبـوحُ شـوقٍ لاصـــبرَ والله لـــي عليـــه
اليـك أشـكو الـذي ألاقـــي يـا خيـر مـن يُشـتكى اليـه
ولـــي بغرناطـــةٍ حَبيـــبُ قـد غلـق الـرهن فـي يديـه
ودَّعتـــه وهْـــو فـــي دلالٍ يظهـر لـي بعـض مـا لديـه
فلـــو تـــرى طـــلَّ نرجسـيه ينهــلّ فـــي وردٍ وجنتيـــه
أبصـــرتُ درا علـى عقيـــق من دمـــه فـــوق صفحتيـــه

وقـال فـي مـدح السلطان الناصـر صـلاح الـدين الأيـوبي الـذي رفـع مكس الحجاز :

اطلت على أفقكِ الزاهرِ سعود من الفَلَكِ الدائرِ

ومنها :

رفعتَ مغارمِ مكس الحجازِ بانعامـــك الشـــامل الغـــامرِ
وأمنـت أكنـافَ تلـك الـبلاد فهـانَ السـبيل علـى العـابرِ
وسُـــحْبُ أياديـك فياضـــةٌ علـــى واردٍ ، وعلـــى صـــادرِ
فكم لك بالشـــرق من حامـــدٍ وكم لك بالغرب من شاكـــرِ

وقـال فـي الشـكوى بـابن شـكر الـذي كـان آخـذ المكـس مـن النـاس فـي الحجاز :

وما نال الحجاز بكم صلاحا وقد نالتـــه مِصْـــرٌ والشـــآمُ

وقال :

إيــاك والشــهوة فــي ملــبس　　　والـبسْ مـن الأثـواب أسـمالها
تواضـع آلانسـان في نفســه　　　أشرف للنفس وأسمـى لهــا

وتوفيت زوجته في ( سبتة ) فدفنها فيها وقال :

بسبتة لــي سـكن فـي الثرى　　　وخـــل كـــريم اليهـــا أتـــى
فلـو أستطيـع ركبتُ الهـوى　　　فزرت بهـــا الحيَّ والميتـــا

قام بثلاث رحلات الى المشرق الأولى سنة ( ٥٧٨ ) للهجرة من غرناطة وعاد اليها سنة ( ٥٨١هـ ) وهي الرحلة المعروفة باسم ( رحلة ابن جبير )(*) ، والثانية سنة (٥٨٥هـ ) وعاد الى ( غرناطة ) سنة ( ٥٨٧هـ ) والثالثة رحل من ( سبتة ) بعد موت زوجته ( عاتكة أم المجد ) بنت الوزير ( أبي جعفر الوقشي ) وكان كلفه بها عظيما ، ووصل الى ( مكة المكرمة ) وجاور بها ثم زار بيت المقدس ، وتحول الى مصر والاسكندرية فأقام فيها يحدث ، ويُؤخذ عنه الى أن لحق بربه في شعبان سنة أربع عشرة وستمائة ، وله أربع وسبعون سنة .

---

(*) طبعت الرحلة الأولى عدة طبعات من قبل المستشرقين الذين اهتموا بها ، وطبعت في مصر ، ومنها طبعة الدكتور حسين نصار ( سنة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م ) ، وعليها الاعتماد في هذا البحث ، وطبعت بمصر سنة ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م بنفقة المكتبة العربية ببغداد لصاحبها نعمان الأعظمي .

## ( ٢ )

تُقدم ( رحلة ابن جبير ) معلومات دقيقة عن البلدان التي زارها تفتقر الى بعضها المصادر لأنها كانت مما شاهده بنفسه ، واطلع عليه ، وأجاله في فكره ، وقد كان انفصاله من ( غرناطة ) مع صديقه احمد بن حسان القضاعي ( --٥٩٩ هـ ) للنية الحجازية المباركة أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال الثالث لشهر فبرير ( شباط ) الأعجمي ، وكان الاجتياز على جيان فحصن القبذاق ، ثم حصن قبره الى أن وصل الى جزيرة طريف ومن هناك ركب هو وصاحبه مركبا متوجها الى الاسكندرية مرورا بدانية ، وميورقة ، وسردانية الى أن وصل الى الاسكندرية بعد ثلاثين يوما .

دخل ابن جبير وصاحبه الاسكندرية ووصف حسنها واتساع مبانيها ، وأسواقها ، ومنارها ، ومدارسها ، ومأوى الدارسين ، والمساجد الكثيرة التي بلغ عددها الى اثني عشر ألف مسجد .

غادر الاسكندرية ومر بدمنهور ، وأجاز النيل في بصا ، وواصل السير الى برمة ، ومرَّ بعدة قرى منها المنية ، والقاهرة ومصر . وأول ما شاهده في القاهرة مشهد الحسين بن علي ( عليه السلام ) ومشاهد أهل البيت ( رضي الله عنهم ) ومشاهد بعض اصحاب النبي( صلى الله عليه وسلم ) ومشاهد الأئمة العلماء الزهاد .

وشاهد المدارس والمستشفيات والقناطر والأهرام وأبا ، الهول ، والجيزة ، والروضة ، ثم توجه الى قوص وأسكر ، ومنية ابن الخصيب ، ومنفلوط ، وأسيوط وغيرها ، ووصل الى قوص بعد ثمانية عشر يوما في

النيل ، ثم توجه الى الحاجر وقلاع الضياع ، ووصل الى ( عَيذاب ) وهي مدينة على ساحل بحر جدة وهي من أحفل مراسي الدنيا لكثرة مراكب الهند واليمن التي تحط فيها وتقلع منها ، وهذه المدينة رهيبة ، وقال إن الاولى بمن يمكنه أن لا يراها .

ركب البحر متوجها الى ( جدة ) وهي قرية على ساحل البحر ، أكثر بيوتها أَخصاص ، وأهلها في شظف من العيش بحال يتصدع له الجماد اشفاقا .

توجه الى ( مكة المكرمة ) مارا بالقرين وهو منزل الحاج ومحط رحالهم ، ومنه يحرمون ، وعندما وصل الى ( مكة المكرمة ) طاف طواف القدوم وسعى بين الصفا والمروة وهما من شعائر الله :

**(( إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ )) ( البقرة ١٥٨ ) :**

وصف المسجد الحرام وأطال في الوصف ، وذكر أَبواب الحرم التسعة عشر بابا ، وأشار الى أبواب مكة الثلاثة وهي : باب المعلى ، وباب المسفل ، وباب الزاهر ، وتحدث عن الخيرات والبركات التي خصَّ الله تعالى أهل مكة المكرمة التي قال في وصفها :

(( دخلنا مكة – حرسها الله – في الساعة الأولى من يوم الخميس الثالث عشر للربيع المذكور وهو الرابع من شهر أغشت ( آب ) على باب العمرة وكان إسراؤنا تلك الليلة المذكورة والبدر قد ألقى على البسيطة

شعاعه ، والليل قد كشف عنا قناعه ، والأصوات تصك الآذان بالتلبية من كل مكان ، والألسنة تضج بالدعاء ، وتبتهل الى الله بالثناء ، فتارة تشتد بالتلبية ، وآونة تتضرع بالأدعية فيا لها ليلة كانت في الحسن بيضة العقْد ، فهي عروس ليالي العمر ، وبكر بنيات الدهر الى أن وصلنا في الساعة المذكورة من اليوم المذكور حرم الله العظيم ومبوأ ( الخليل ابراهيم ) فألفينا الكعبة الحرام عروسا مجلوة مرفوفة الى جنة الرضوان ، محفوفة بوفود الرحمن ، فطفنا طواف القدوم ، ثم صلينا بالمقام الكريم ، وتعلقنا باستار الكعبة عند الملتزم وهو بين الحجر الأسود والباب وهو موضع استجابة الدعوة ، ودخلنا قبة زمزم وشربنا من مائها وهو لما شُرب له كما قال ( ﷺ ) ثم سعينا بين الصفا والمروة ، ثم حلقنا وأحللنا )) .

أقام في ( مكة المكرمة ) ثمانية أشهر وثلث شهر أدى فيها فريضة الحج ، ثم غادرها متوجها الى ( المدينة المنورة ) وأدى زيارة الروضة المكرمة ، ووصف مسجد رسول الله ( ﷺ ) وصفا مفصلا ، وبعد مدة توجه الى ( العراق ) ومر بمنازل وأماكن كثيرة الى أن وصل الى ( النجف الأشرف ) فالكوفة فالحلة ، ثم رحل عنها وأجاز جسرا على ( نهر النيل ) – وهو فرع متشعب من الفرات – ثم وصل الى ( بغداد ) التي ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها إلا شهير اسمها ، فلا حسن فيها يستوقف النظر إلا دجلتها (( التي هي بين شرقيها وغربيها منها كالمرآة المجلوة بين صفحتين ، والعقد المنتظم بين لبتين ، فهي تردها ولا تظمأ ، وتتطلع منها في مرآة صقيلة لا تصدأ )) . وتحدث عن أهلها ومساجدها والمدرسة النظامية ثم غادرها متوجها الى الموصل مارا بعدة قرى الى أن وصل الى

( تكريت ) فالموصل ، فنصيبين ، ووصل الى نهر الفرات وعبر الى قلعة نجم والرقة ورحبة مالك بن طوق ( رحبة الشام ) ثم منبج فحلب فقنسرين ، وحماة ، وحمص ، فدمشق وهي جنة المشرق ، ووصفها وصفا مبسوطا ، ووصف ( الجامع الأموي ) ومشاهد المدينة وأحوالها وآثارها وعادات أهلها ، ثم توجه الى ( عكة ) وهي قاعدة مدن الافرنج بالشام ، وتوجه الى صور ، ثم عاد الى ( عكة ) بالبحر ، ومنها استقلته السفينة متوجها الى الاندلس ، ومر ببعض الجزر ومنها جزيرة صقلية ، وبعد معاناة الرحلة وصل الى الأندلس ومدينة غرناطة منزله :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قرَّ عينا بالايات المسافرُ وكانت رحلته الأولى قد استغرقت من غرناطة والعودة اليها عامين كاملين وثلاثة أشهر ونصفا إذ غادرها هو وصاحبه احمد بن حسان يوم الخميس الثامن من شوال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة – الثالث من فبرير ( شباط ) – وعاد اليها يوم الخميس الثاني والعشرين لمحرم سنة احدى وثمانين وخمسمائة ، العشرين لابريل ( نيسان ) .

( ٣ )

ركب ابن جبير وصاحبه في هذه الرحلة البحر المتوسط مرتين : من الاندلس الى الاسكندرية ثم من عكة الى الاندلس ، وركب بحر القلزم ( الأحمر ) من عَيذاب الى جدة ، وعبر نهر النيل ونهر الفرات وتمتع بمرأى نهر دجلة ، وكان قد قطع الصحارى وهو متوجه الى العراق ، وشاهد المنازل والآبار ، ولم يتعرض لوصف البيئة إلا باشارات موجزة ، لأن كل الأراضي

التي مرَّ بها ليس فيها من الجبال والتلال إلا القليل ، ولعل من أهمها الجبال القريبة من المدينة المنورة ، والجبال التي في شمال العراق وبعض جبال الشام .

لم يتعرض للمناخ إلا قليلا ، لأن المنطقة التي تجول فيها واحدة وهي مصر والحجاز والعراق والشام ، ومن الاشارات العابرة ما ذكره من جو جدة الحار حيث أدى الى أن ينام أهلوها على السطوح ليستريحوا من أذى الحر .

ومن ذلك طيب هواء مكة وفتور حمارَّة الحر في شهر آب حين دخلها .

وأشاد بهواء ( القارورة ) ، وقال : إن (( هواء بغداد ينبت الشرور في القلب )) حتى إذا ما حلَّ بقرية زريران نفحته (( نوافح هوائها )) ونقعته (( الغلة ببرد مائها )) .

وقال في مناخ حرّان : (( بلد لا حسن فيه ولا ظل يتوسط بَرديه ، قد اشتق من اسمه هواؤه ، فلا يألف البردَ ماؤه ، ولا تزال تتقد بلفح الهجير ساحاته وأرجاؤه ، ولا تجد فيه مقيلا ، ولا تتنفس منه إلا نفسا ثقيلا )) .

وقال عن منبج : (( نسيمها أرج النشر عليل ، نهارها يندى ظله ، وليلها كما قيل فيه سَحَر كله )) .

وقال عن حمص : (( وأحمد خلال هذه البلدة هواؤها الرطب ، ونسيمها الميمون تخفيفه وتجسيمه ، فكأن الهواء النجدي في الصحة شقيقه وقسيمه )) .

وذكر نزول الثلج في مدينة حسينة رأس جزيرة صقلية شتاء وصيفا .

وكانت من وسائل نقله المراكب التي كانت تبحر في البحر المتوسط وبحر القلزم ( الاحمر ) وكان يتجنب الركوب في المراكب الصغيرة خشية العواصف وهيجان البحر ، وذكر المراكب التي تعبر الى جدة وهي الجلاب ، وقد وصفها وكيفية صنعها .

وكانت الزوارق مما استعمله عند الذهاب الى المركب حين يكون بعيدا عن الساحل ، أو عبور بعض الأنهر التي مرَّ بها في اثناء رحلته .

وكانت من وسائل تنقله الهماليج وهي ( البرذون ) والبغال والحمير ، وكان الجمل اكثر استعمالا لأنه ( سفينة الصحراء ) واستعمل الدواب التي اشتراها من ( الموصل ) (( تفاديا من معاملة الجمالين )) .

كان ابن جبير دقيقا في تحديد المسافات والقياسات وقد استعمل ( الميل ) كثيرا في رحلته ، وكان يقيس به المسافة بين مكان ومكان ، فيقول – مثلا : (( على نحو ميل أو أقل )) ويقول : (( بين البرين المذكورين برسردانية وبرصقلية نحو الأربع مائة ميل )) .

واستعمل ( الفرسخ ) عدة مرات ، وهو والميل لقياس المسافات الطويلة ، أما قياس الطول والعرض والارتفاع والسعة للأشياء فهي :

الشبر : (( دور كل سارية منها خمسون شبرا ، وبين كل سارية وسارية ثلاثون شبرا )) – (( مرتفع عن الارض بإحد عشر شبرا ونصف )) – (( وسعة الصفحة القبلية منها أربعة وعشرون شبرا ، وسعة الصفحة الشرقية ثلاثون شبرا )) .

الباع : (( ذرعنا أحد جوانبه الأربعة فألفينا فيه نيفا وخمسين باعا )) .

الذراع : (( ذرعها في الطول أربعمائة ذراع ، وفي العرض ثلثمائة ذراع )) .

الخطوة : (( ودون الكبير هرم سعته من الركن الواحد الى الركن الثاني مائة وأربعون خطوة )) – و (( وسعته خمس عشرة خطوة )) .

المرحلة : (( كان نزولنا على الماء بموضع يعرف بالعشراء على مرحلتين من عَيذاب )) – (( ومن هذا الموضع الى الموصل مرحلتان )) – (( ويليها بمقدار نصف مرحلة )) .

القامة : (( ذرعنا أحد جوانبه الأربعة فألفينا نيفا وخمسين باعا ، ويذكر أن في طوله أزيد من مائة وخمسين قامة )) – (( وعمق الماء سبع قامات )) .

الغلوة : (( وعلى مقربة من هذه الأهرام بمقدار غَلْوة )) – (( ومسجد عائشة – رضي الله عنها – خارج هذه الأعلام بمقدار غلوتين )) والغلوة : المدى الذي يذهبه السهم حين يُرمى به .

البريد : (( بين أسوان وبين قوص ثمانية بُرُد )) .

المرجع : (( فيكون تكسيره محققا ثمانية وأربعين مَرجعا )) .

ومقياس الزمن هو :

الساعة : (( أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال )) – (( ويدعو الله – عز وجل – عند بيته الكريم في الساعة التي أبواب سمائه فيها مفتوحة )) .

الليلـة : (( وسـرينا تلـك الليلـة )) – (( فـان ( اطـرابنش ) بينهـا وبـين تونس مسيرة يوم وليلة )) .

اليـوم : تكـرر كثيـرا مـن الصـفحة الأولـى ، ومثلـه أيـام الاسـبوع ، والشهر .

استعمل ابن جبير الشهور القمرية الهجرية والرومية الميلادية وهي : ينير ، فبرير ، مارس ، أبريل ، مايه ، يونيه ، يوليه ، أغشت ( أغوشت ) شتنبر ، اكتوبر ، نونبر ، دجنبر ، ويسميها الشهور الأعجمية ، وكان يبدأ بالشهر الهجري ثم يتبعه بالشهر الرومي ، ولم يستعمل الشهور العربية ( كانون الثاني ، شباط .... ) إلا شهر ( نيسان ) في آخر رحلته ثم عاد فذكره باسم ( ابريل ) ، على الرغم من أن الشهور العربية كانت مستعملة في الأندلس لاعتماد المزارعين عليها ، وقد ذكرها احمد بن محمد بن حجاج الاشبيلي في كتابه ( المقنع في الفلاحة ) وذكرها أبو زكريا يحيى بن محمد بن محمد بن احمد بن العوام الاشبيلي في كتابه (( الفلاحة الأندلسية ) .

( ٤ )

لم تكن الرحلة التي قام بها ابن جبير رخاء إذ بدأت المصاعب الجمة منذ أن ركب هو وصاحبه احمد بن حسان البحر ، إذ كانت العواصف تهب ، والأمواج تعلو ، والأمطار تهمي ، والظلام يشتد فلا يكاد ربان المركب يعرف طريقه ، وكان الركاب يتضرعون الى الله أن ينجيهم من هول ما يلاقون ، وهم يعلمون أن ركوب البحر خطر ، وأن جزره وتشعب مرجان

سواحلها خطر ، فقد تصطدم بها المراكب فتغدو ألواحا تلعب بها الريح ، وتتقاذفها الأمواج ، ويصبح راكبوها طعما لحيتان البحر .

إن ما ذكره ابن جبير من مصاعب ركوب البحر يرهب ، وقد روى كل ما مر به من ذلك الهول ، (( وطرأ علينا من مقابلة البر في الليل هول عظيم عصم الله منه بريح أرسلها الله تعالى في الحين من تلقاء البحر فأخرجنا منه ... وقام علينا نوء هال له البحر ... فبقينا مترددين بسببه حول بر ( سردانية ) فأطلع علينا في حال الوحشة وانغلاق الجهات بالنوء فلا نميز شرقا من غرب - مركبا للروم قصدنا الى أن حاذانا فسُئل عن مقصده فأخبر أنه يريد جزيرة ( صقلية ) وأنه من ( قرطاجنة ) عمل ( مرسيه ) وكنا قد استقبلنا طريقه التي جاء منها من غير علم فأخذنا عند ذلك في اتباع أثره والله الميسر لا رب سواه ، فخرج علينا طرف من بر ( سردانية ) المذكور فأخذنا في الرجوع عودا على بدء )) .

فارق ( سردانية ) ولكن (( عصفت علينا ريح هال لها البحر ، وجاء معها مطر ترسله الريح بقوة كأنه شآبيب سهام ، فعظم الخطب واشتد الكرب ، وجاءنا الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة ، فبقينا على تلك الحال الليل كله ، واليأس قد بلغ منا مبلغه ، وارتجينا مع الصباح فرجة تخفف عنا بعض ما نزل بنا فجاء النهار بما هو أشد هولا وأعظم كربا ، وزاد البحر اهتياجا واربدت الآفاق سوادا ، واستشرت الريح والمطر عصوفا حتى لم يثبت معها شراع ، فلجئ الى استعمال الشُرُع الصغار فأخذت الريح أحده ومزقته ، وكسرت الخشبة التي تربط الشرع فيها ... فحينئذ تمكن اليأس من النفوس وارتفعت أيدي المسلمين بالدعاء - عز وجل - وأقمنا على تلك

الحال النهار كله فلما جَنَّ الليل فترت الحال بعض الفتور ، وسرنا في هذه الحال كلها )) .

وصل ابن جبير الى الاسكندرية بعد أن لقي الأهوال ، ثم توجه الى القاهرة ثم الى عَيذاب ليركب بحر القلزم ( الأحمر ) الى جدة ، ولم يكن البحر هادئا ، إذ بعد أن استبشر الركاب برؤية الطير المحلقة من بر ( الحجاز ) حتى (( لمع برق من جهة البر المذكور وهي جهة الشرق ، ثم نشأ نوء أظلم له الأفق الى أن كسا الآفاق كلها وهبت ريح شديدة صرفت المركب عن طريقه راجعا وراءه ، وتمادى عصوف الرياح ، واشتدت حلكة الظلمة وعمت الآفاق فلم تدرِ الجهة المقصودة منها ، الى أن ظهر بعض النجوم فاستدل بها بعض الاستدلال )) .

وصل المركب الى جدة ، وحمد ركابه الله على (( السلامة والنجاة من هول )) ما عانوا من الأهوال ، فمنها (( ما كان يطرأ من البحر ، واختلاف رياحه ، وكثرة شعابه المعترضة فيه ، ومنها ما كان يطرأ من ضعف عدة المركب واختلالها )) . وكانت المراكب – أحيانا – تصطدم بشعبة من تلك الشعاب فيُسمع لها صوت يؤذن باليأس ، فيموت الركاب مرارا ويحيون مرارا ، وكانت المراكب تغرق أحيانا لكثرة ما يُشحن من الحجاج في ( الجِلاب ) (( حتى يجلس بعضهم على بعض ، وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة ، يحمل أهلها على ذلك الحرص والرغبة في الكراء حتى يستوفي صاحب الجلبة منهم ثمنها في طريق واحدة ، ولا يبالي بما يصنع البحر بها بعد ذلك ، ويقولون : (( علينا الألواح وعلى الحجاج بالأرواح )) .

ولم تكن العودة الى الأندلس يسيرة ، لأن البحر لا يؤتمن ، فما ان سار المركب تاركا ( عكة ) وراءه حتى هبت (( الريح الغربية فقصفت قرية الصاري المعروف بالاردمون وألقت نصفها في البحر مع ما اتصل بها من الشراع ، وعصم الله من وقوعها في المركب لأنها كانت تشبه الصواري عظما وضخامة )).

وظل البحر يعصف بالمركب ، إذ عصفت الريح (( فطار لها المركب بجناحي شراعه ، والبحر بها قد جُنَّ واستشرى لجاجه ، وقذفت بالزبد أمواجه )) .

و (( انقلبت الريح غربية وكشف النوء من الغرب ، وجاءت ريح عاصفة )) و (( البحر قد هاج هائجه ، وماج مائجه ، فرمى بموج كالجبال ، يصدم المركب صدمات يتقلب لها على عظمه ، تقلب الغصن الرطيب ، وكان كالسور علوا فيرتفع له الموج ارتفاعا يرمي في وسطه شآبيب كالوابل المنسكب ، فلما جَنَّ الليل اشتد تلاطمه ، وصكت الآذان غماغمه ، واستشرى عصوف الريح فحطت الشرع واقتصر على الدلالين الصغار دون أنصاف الصواري ، ووقع اليأس من الدنيا وودعنا الحياة بسلام ، وجاءنا الموج من كل مكان ، وظننا أنا قد أحيط بنا ، فيا لها ليلة يشيب لها سود الذوائب مذكورة في ليالي الشوائب ، مقدمة في عداد الحوادث والنوائب ، ونحن منها مثل ليل صُول(*) طولا فأصبحنا ولم نكد ، فكان من الاتفاقات

---

(*) قال الشاعر :

في ليل صول تناهى العرض والطول كأنما صبحه في الليل موصول

الموحشة أن أبصرنا بر ( إقريطش ) من يسارنا ، وجباله قد قامت أمامنا ، وكنا قد خلفناه عن يميننا فاسقطتنا الريح عن مجرانا ونحن نظن أنا قد جزناه فسُقط في أيدينا وخالفنا المجرى المعهود الميمون وهو أن يكون البر المذكور منا يمينا في استقبال ( صقلية ) فاستسلمنا للقدر ، وتجرعنا غصص هذا الكدر ، وقلنا

سيكون الذي قُضي　　　سخط العبد أو رَضي

وظلت الأهوال تترى الى وصل ابن جبير الى الأندلس ، ودخل ( غرناطة ) حيث يقيم فيها .

( ٥ )

لم يكن ركوب البحر وحده مزعجا ، وإنما كان ما يتعرض له المسافرون من معاملات سيئة كالتفتيش الذي فيه إهانة المسافرين ، وسلب ما يحملون أحيانا ، وقد تحدث ابن جبير عن ذلك التفتيش ، فما أن وصل الى ( الاسكندرية ) حتى طلع الأمناء الى المركب الذي أقله لتقييد (( جميع ما جلب فيه ، فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحدا واحدا ، وكتبت اسماؤهم وصفاتهم ، وأسماء بلادهم ، وسُئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض ( الدراهم والدنانير ) ليؤدي زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك وما لم يحل . وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زادٍ لطريقهم ، فلزموا أداء زكاة ذلك دون أن يُسأل أحال عليه الحول أم لا . واستنزل احمد بن حسان منا ليسأل عن

أنباء المغرب ، وسلع المركب فطيف به مرقبا ( محروسا ) على السلطان أولا ثم على القاضي ، ثم على أهل الديوان ، ثم على جماعة من حاشية السلطان ، وفي كل يُستفهم ثم يقيد قوله فخلي سبيله . وأُمر المسلمون بتنزيل أسبابهم ، وما فضل من أزودتهم ، وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم ، وبحمل جميع ما أنزلوه الى الديوان ، فاستدعوا واحدا واحدا ، وأحضر ما لكل واحد من الأسباب ، والديوان قد غص بالزحام ، فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دقَّ منها وما جلّ ، واختلط بعضها ببعض ، وأدخلت الأيدي الى أوساطهم بحثا عما عسى أن يكون فيها ، ثم استُحلفوا بعد ذلك : هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا . وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدي وتكاثر الزحام ، ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزي عظيم )) .

وأشار ابن جبير الى أن (( هذه لا محالة من الأُمور الملبَّس ( المخفية ) فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين ، ولو علم بذلك على ما يؤثر عنه من العدل وإيثار الرفق لأزال ذلك )) .

وقال وهو يشير الى الضرائب والزكاة وهو في رحلة الصعيد : (( ببلاد هذا الصعيد المعترضة في الطريق للحجاج والمسافرين كأخميم وقوص ومنية ابن الخصيب من التعرض لمراكب المسافرين وتكشفها والبحث عنها ، وإدخال الأيدي الى أوساط التجار فحصا عما تأبطوه واحتضنوه من دراهم أو دنانير ما يقبح سماعه وتشنع الأُحدوثة عنه ، كل ذلك برسم الزكاة دون مراعاة لمحلها ، أو ما يدرك النصاب منها حسبما ذكرناه في ذكر ( الاسكندرية ) من هذا المكتوب ، وربما الزموهم الأيمان على ما بأيديهم ،

وهل عندهم غير ذلك ، ويحضرون كتاب الله العزيز يقع اليمين عليه فيقع الحجاج بين أيدي هؤلاء المتناولين لها مواقف خزي ومهانة تذكرهم أيام المكوس ، وهذا أمر يقع القطع على أن ( صلاح الدين ) لا يعرفه ، ولو عرفه لأمر بقطعه كما أمر بقطع ما هو أعظم منه )) .

وأشار الى (( خروج شرذمة من مِلردة أعوان الزكاة في أيديهم المسال الطوال ذوات الأنصبة ( المقابض ) فيصعدون الى المراكب استكشافا لما فيها فلا يتركون عكما ولا غرارة إلا ويتخللونها بتلك المسال الملعونة مخافة أن يكون في تلك الغرارة أو العكم اللذين لا يحتويان سوى الزاد شيء غُيب عليه من بضاعة أو مال .

وجرى مثل ذلك وابن جبير في ( عكة ) ولكن برفق ، قال : (( حملنا الى الديوان وهو خان معد لنزول القافلة وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الأبنوس المذهب بالحلى ، وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها ، ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له يعرف بالصاحب ، لقب وقع عليه لمكانه من الخطة ، وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند ، وكل ما يجنى عندهم راجع الى الضمان ، وضمان هذا الديوان بمال عظيم . فانزل التجار رحالهم به ، ونزلوا في أعلاه وطلب رحل من لاسعة له لئلا يحتوي على سلعة مخبوءة فيه ، وأطلق سبيله فنزل حيث شاء وكل ذلك برفق وتؤده دون تعنيف )) .

وكان مما يخشى منه المسافرون أن يقعوا أسرى ، وقد أشار ابن جبير الى ذلك وذكر بعض الأسرى من المسلمين بين رجال ونساء يباعون في السوق ، ومن الروم الذين يقومون بالاعمال الشاقة ، وقال : (( إنا لما

حللنا ( الأسكندرية ) عاينا مجتمعا من الناس عظيما برزوا لمعاينة أسرى من الروم ، أُدخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوههم الى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق ، فسألنا عن قصتهم ))

وقال إن أسرى المسلمين (( يرسفون في القيود ، ويصرفون الخدمة الشاقة تصريف العبيد ، والأسيرات المسلمات كذلك في أسوقهن خلاخيل الحديد فتنفطر لهم الأفئدة )) .

( ٦ )

لم يهمل ابن جبير الحياة الاجتماعية لسكان المناطق التي مرَّ بها وإن كان كلامه موجزا ، لأنه لم يمكث طويلا فيها ليطلع على كل صغيرة وكبيرة .

كان سكان المناطق التي زارها وأقام في بعضها أو مرَّ بها عربا ، إذ رحلته لم تتجاوز مصر والحجاز والعراق والشام وبعض الأماكن التي مرّ بها مثل انطاكية وديار بكر ونصيبين ، وهي تابعة للحكم العربي الاسلامي .

ونحن على الرغم من أن معظم السكان كانوا عربا ، فان البجاة كانوا يسكنون ( عَيذاب ) قال : (( وأهلها الساكنون بها من قبيل السودان يعرفون بالبجاة ولهم سلطان من أنفسهم يسكن معهم في الجبال المتصلة بها ، وربما وصل في بعض الأحيان ، واجتمع بالوالي الذي ثَمّ شيئا من الغز إظهارا للطاعة . ومستنابه مع الوالي في البلد ، والفوائد كلها له إلا البعض منها . وهذه الفرقة من السودان المذكورين فرقة أضل من الأنعام سبيلا وأقل عقولا ،

لادين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها إظهارا للاسلام ، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم ما لا يُرضى ولا يحل ، ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة إلا خرقا يسترون بها عوراتهم ، وأكثرهم لايسترون ، بالجملة فهم أمة لاخلاق لهم ، ولا جناح على لاعنهم )) .

وقال عن سكان جدة : (( وأكثر سكان هذه البلدة مع ما يليها من الصحراء والجبال أشراف علويون حسنيون وحسينيون – رضي الله عن سلفهم الكريم )) .

وكان الفرنج على ساحل البحر المتوسط وكانت قلعتهم ( عكة ) قال : (( هي قاعدة مدن الافرنج بالشام )) .

اطلع ابن جبير على بعض عادات المناطق التي زارها أو مر بها أو أقام فيها ، فأهل ( قنا ) كانوا يمنعون النساء من الخروج (( ومن مآثرها المأثورة صون نساء أهلها ، والتزامهن البيوت فلا تظهر في زقاق من أزقتها امرأة البتة ، صحت تلك الأخبار عنهن ، وكذلك نساء ( دشنة ) المذكورة قبيل هذا )) . وهذا بخلاف نساء ( عَيذاب ) فهن يتصرفن عراة إلا خرقا يسترن بهن عوراتهن .

ومن عادات أهل مكة انهم (( عند مستهل كل شهر من شهور العام يتصافحون ويهنئ بعضهم بعضهم ، ويدعو بعضهم لبعض كفعلهم في الأعياد ، هكذا دائما ، وذلك طريقة من الخير واقعة في النفوس ، تجدد الإخلاص ، وتستمد الرحمة من الله – عز وجل – بمصافحة المؤمنين

بعضهم بعضا ، وبركة ما يتهادونه من الدعاء ، والجماعة رحمة ، ودعاؤهم من الله بمكان )) .

وشهر رجب الفرد (( عند أهل مكة موسم من مواسم العظمة ، وهو أكبر أعيادهم )) .

وفي العمرة الرجبية تمتلئ شوارع مكة وأزقتها بالجمال وقد شدت عليها الهوادج (( مكسوة بأنواع كُسا الحرير وغيرها من ثياب الكتان الرفيعة بحسب سعة أربابها ووفرهم ، كل يتأنق ويحتفل بقدر استطاعته ، فأخذوا في الخروج الى التنعيم ميقات المعتمرين ، فسالت تلك الهوادج في بطاح ( مكة ) وشعابها ، والابل قد زينت تحتها بأنواع التزيين ، وأُشعرت بغير هدى بقلائد رائقة المنظر من الحرير وغيره ، وربما فاضت الأستار التي على الهوادج حتى تسحب أذيالها على الأرض )) .

وأهل مكة يحتفلون بقدوم شهر رمضان المبارك ، وفي العيد ونحو ذلك من المناسبات الدينية أو عند شحة الأمطار حيث يجتمع الناس كافة للاستسقاء تجاه الكعبة المعظمة بعد أن يندبهم القاضي الى ذلك .

وذكر بعض سلوك أهل ( بغداد ) فقال : (( وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياءً ويذهب بنفسه عجبا وكبرياءً ، يزدرون الغرباء ، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والاباء ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنباء ، قد تصور كل منهم في معتقده وخَلَده أَن الوجود كله يصغر بالاضافة لبلده ، فهم لايستكرمون في معمور البسيطة مثوى غير مثواهم كأنهم لا يعتقدون أن لله بلادا أو عبادا سواهم ، يسحبون أذيالهم أشرا

ويطرا ولا يغيرون في ذات الله منكرا ، يظنون أن أسنى الفخار سحب الإزار ... )) ولعل هذا ما شهده ، إذ لا يعقل أن سكان بغداد كلهم بهذه الصفات . وأكد ما قاله عن بغداد حين قال عن ( تكريت ) : (( أهلها أحسن أخلاقا وقسطا في الموازين من أهل بغداد )) .

وأثنى على مشايخ مدينة ( حران ) وإن قال عنها أن الهواء اشتق من اسمها ، وقال : (( وبهذه البلدة كثير من أهل الخير وأهلها هينون معتدلون محبون للغرباء )) واشتهرت بكثرة العباد والزهاد .

وقال : إن أهل ( دمشق ) يعظمون الحجاج على قرب مسافة الحج عنهم وتيسير ذلك لهم واستطاعتهم لسبيله ، (( فهم يتمسحون بهم عند صدورهم ، ويتهافتون عليهم تبركا بهم )) ومن أغرب ما حدث به (( أن الحاج الدمشقي مع من انضاف اليهم من المغاربة عند صدورهم الى دمشق خرج الناس لتلقيهم : الجم الغفير نساءً ورجالا ، يصافحونهم ويتمسحون بهم ، وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها ، وأخرجوا اليهم الأطعمة )) و (( كثير من النساء يتلقين الحاج ويناولنهم الخبز ، فاذا عض الحاج فيه اختطفنه من أيديهم وتبادرن لأكله تبركا بأكل الحاج له ، ودفعن له عوضا منه دراهم )) . واستدرك بعد أن أثنى على أهل ( دمشق ) قائلا : (( وصنع بنا في بغداد عند تلقي الحاج بها مثل ذلك أو قريب منه )) .

ومن عادة أهل ( دمشق ) : (( إنهم في كل سنة يتوخون الوقوف يوم عرفة بجوامعهم إثر صلاة العصر ، يقف بهم أئمتهم كاشفي رؤوسهم داعين الى ربهم التماسا لبركة الساعة التي يقف فيها وفد الله – عز وجل – وحجيج بيته الحرام بعرفات ، فلا يزالون واقفين داعين متضرعين الى

الله – عز وجل – وبحجاج بيته متوسلين الى أن يسقط قرص الشمس ، ويقدروا نفر الحاج ، فينفصلوا باكين على ما حرموه من ذلك الموقف العظيم بعرفات ، وداعين الى الله – عز وجل – أن يوصلهم اليها ، ولا يخليهم من بركة القبول في فعلهم ذلك )) .

وذكر بعض العادات في ( صور ) قائلا :

(( ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث عنها زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها ، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالا ونساءً واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب ، والمزامير ، وجميع الآلات اللهوية ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال كأنهما من ذوي أرحامها وهي أبهى زي وأفخر لباس ، تسحب أذيال الحرير المذهب سحبا على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة ، وعلى لبتها مثل ذلك منتظم وهي رافلة في حليها وحللها تمشي فترا في فتر مشي الحمامة وسير الغمامة ، نعوذ بالله من فتنة المناظر . وأمامها جلة رجالها من النصارى في أفخر ملابسهم البهية تُسحب أذيالهم خلفهم ، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين في أنفس الملابس ، ويرفلن في أرفل الحلى ، والآلات اللهوية قد تقدمتهم ، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سماطين يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك ، فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها ، وأقاموا يومهم ذلك في وليمة ، فأدانا الاتفاق الى رؤية هذا المنظر الزخرفي المستعاذ بالله من الفتنة فيه )) .

وفي ( رحلة ابن جبير ) إشارات قليلة الى المهن ، فأهل ( عَيذاب ) يعتمدون على نقل الحجاج بالمراكب ( الجلاب ) الى جدة ، (( وما من أهلها ذوي اليسار إلا من له الجلبة والجلبتان ، فهي تعود عليهم برزق واسع )) .

وقال عن أهل ( جدة ) : (( وهم من شظف العيش بحال وقال عن أهل ( جدة ) : (( وهم من شظف العيش بحال يتصدع له الجماد إشفاقا ، ويستخدمون أنفسهم في كل مهنة من المهن ، من إكراء جمال إن كانت لهم ، ومبيع لبن وماء ، الى غير ذلك من تمر يلتقطونه او حطب يحتطبونه ، وربما تناول ذلك نساؤهم الشريفات بأنفسهن ))

وكان بعضهم في مدينة ( حسينه ) من جزيرة ( صقلية ) يمتهن التطريز .

وأشار ابن جبير الى ما يعطى للعاملين الدائميين من راتب ، ولم يحدد احيانا مقداره ، فيقول – مثلا – : ولهم على ذلك كله مرتب معلوم في كل شهر )) . وذكر ان أهل ( الاسكندرية ) في (( نهاية الترفيه واتساع الأحوال ، لا يلزمهم وظيف ، البتة )) .

وفي الرحلة إشارات قليلة الى الملابس ، ويبدو انها كانت متشابهة او متقاربة فلم تثر اعجاب ( ابن جبير ) ليتحدث عنها ما عدا الاحرام في المغرب .

اهتم ( ابن جبير ) بالعقيدة والمذهب ، وانتقد اهل ( عَيذاب ) وقال : (( لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها إظهارا للإسلام )) ، وقال : (( وأكثر هذه الجهات الحجازية وسواها فرق وشيع

لا دين لهم ، قد تفرقوا على مذاهب شتى )) وأثنى على الاسلام في ( المغرب ) وقال : (( إنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب ؛ لأنهم على جادة واضحة لا بُنيات لها )) .

وتحدث عن ( مكة ) وقال : (( وللحرم أربعة أئمة سنية ، وإمام خامس لفرقة تسمى الزيدية )) وتحدث عن الإمام الشافعي وما يقوم به في أداء الصلاة ، ثم تحدث عن المالكي ، والحنبلي ، والحنفي .

وتحدث عن العمرة الرجبية ، وشعائرها ، قال : (( فلما كانت صبيحة ليلة الخميس خرج الى العمرة في احتفال لم يسمع بمثله ، انحشد له أهل مكة عن بَكرة أبيهم ، فخرجوا على مراتبهم قبيلة قبيلة وحارة وحارة شاكين من الأسلحة فرسانا ورَجالة فاجتمع منهم عدد لا يحصى كثرة يتعجب المعاين لهم لوفور عددهم ، فلو أنهم في بلاد جمة لكانوا عجبا فكيف وهم في بلد واحد ، وهذا أدل الدلائل على بركة البلد ، فكانوا يخرجون على ترتيب عجيب فالفرسان منهم يخرجون بخيلهم ويلعبون بالأسلحة عليها ، والرَجالة يتواثبون ويتشاقفون ( يتبارزون ) بالاسلحة في أيديهم حرابا وسيوفا وحجفا ( الترس ) وهم يظهرون التطاعن بعضهم لبعض ، والتضارب بالسيوف ، والمدافعة بالحجف التي يستجنون ( يحتمون ) بها ، وأظهروا من الحذق بالثقاف كل أمر مستغرب ، وكانوا يرمون بالحراب الى الهواء ، ويبادرون اليها لقفا بأيديهم ، وهي قد تصوبت أسنتها على رؤوسهم ، وهم في زحام لايمكن فيه المجال ، وربما رمى بعضهم بالسيوف في الهواء فيتلقونها قبضا على قوائمها كأنها لم تفارق أيديهم ، الى أن خرج الأمير يزحف بين قواده ، وأبناوه أمامه وقد قاربوا سن الشباب ، والرايات تخفق أمامه ، والطبول

على الحاضرين يمينا وشمالا ، ويقف بين رايتين سوداوين فيهما تجزيع بياض وقد ركزا في أعلى المنبر )) .

وقال في خطيب آخر : (( ثم يقبل الخطيب داخلا [illegible] بباب النبي ( ﷺ ) وهو يقابل المقام في [illegible] الاخذ من الشرق الى الشمال ، لابسا ثوب سواد مرسوما بذهب ، ومتعمما بعمامة سوداء مرسومة أيضا ، وعليه طيلسان شَرْب رقيق ، كل ذلك من كُسا الخليفة التي يرسلها الى خطباء بلاده ، يرفل فيها وعليه السكينة والوقار يتهادى رويدا بين رايتين سوداوين يمكنهما رجلان من قَوَمة المؤذنين ، وبين يديه ساعَيا أحد القومة وفي يده عود مخروط احمر قد ربط في رأسه مَرَس ( حبل ) من الأديم المفتول رقيق طويل في طرفه عذبة صغيرة ينفضها بيده في الهواء نفضا فتاتي بصوت عال يُسمع من داخل الحرم وخارجه كأنه إيذان بوصول الخطيب ، ولا يزال في نفضها الى أن يقرب من المنبر ، ويسمونها الفرقعة ، فاذا قرب من المنبر عرَّج الى الحجر الأسود فقبله ، ودعا عنده ، ثم سعى الى المنبر والمؤذن الزمزمي رئيس المؤذنين بالحرم الشريف ساعٍ أمامه لابسا ثياب السواد أيضا وعلى عاتقه السيف يمسكه بيده دون تقلد له ، فعند صعوده في أول درجة قلده المؤذن المذكور السيف ثم ضرب بنعلة سيفه فيها ضربة أسمع بها الحاضرين ، ثم في الثانية ، ثم في الثالثة ، فاذا انتهى الى الدرجة العليا ضرب ضربة رابعة ووقف داعيا مستقبل الكعبة بدعاء خفي ، ثم انفتل عن يمينه وشماله وقال : (( السلام عليكم ورحمة الله وبركاته )) فيرد الناس عليه السلام ، ثم يقعد ويبادر المؤذنون بين يديه في المنبر بالأذان على لسان واحد ، فاذا فرغوا قام للخطبة فذكر ووعظ ، وخشَّع

فأبلغ ، ثم جلس الجلسة الخطيبية وضرب بالسيف ضربة خامسة ، ثم قام للخطبة الثانية فأكثر بالصلاة على محمد ( ﷺ ) وعلى آله ، ورضّى عن أصحابه ، وأختص الأربعة الخلفاء بالتسمية – رضي الله عن جميعهم – ودعا لعمي النبي ( ﷺ ) حمزة والعباس ، وللحسن والحسين ، ووالى الترضي عن جميعهم . ثم دعا لأمهات المؤمنين زوجات النبي( ﷺ ) ورضّى عن فاطمة الزهراء ، وعن خديجة الكبرى بهذا اللفظ ، ثم دعا للخليفة العباسي أبي العباس احمد الناصر ، ثم لأمير ( مكة ) مكثر بن عيسى بن فلينة بن قاسم بن محمد بن جعفر بن أبي هاشم الحسني ، ثم لصلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب ، ولولي عهده أخيه أبي بكر بن أيوب ، وعند ذكر صلاح الدين بالدعاء تخفق الألسنة بالتأمين عليه من كل مكان :

وإذا أحبَّ الله يوما عبده ألقى عليه محبة للناس

وحُقَّ ذلك عليهم لما بذله من جميل الاعتناء بهم ، وحسن النظر لهم ، ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم )) .

( ٧ )

وقف ابن جبير عند بعض الجوانب الاقتصادية ، ولفت نظره الأسواق التي كانت المدن والقرى تحفل بها ، وقد يسميها ( البازار ) قال عن أسواق مدينة ( دُنيصر ) : (( ويسمون هذه السوق المجتمع اليها من الجهات البازار )) .

وأول ما وصف به الاسواق ما شاهده في ( الاسكندرية ) من أسواق في نهاية من الاحتفال ، وفي الجزيرة بالقاهرة أسواق عامرة ولها كل يوم أحد سوق من الأسواق العظيمة يُجتمع اليها .

وتكلم على أسواق ( مكة المكرمة ) وقال : (( الثمرات تجلب اليها من كل مكان ، فهي أكثر البلاد نعما وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر ، ولو لم يكن لها من المتاجر إلا أوان الموسم ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب فيباع فيها في يوم واحد – فضلا عما يتبعه – من الذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت وسائر الأحجار ، ومن أنواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعود والعقاقير الهندية الى غير ذلك من جلب الهند والحبشة الى الامتعة العراقية واليمانية الى غير ذلك من السلع الخراسانية والبضائع المغربية الى ما لا ينحصر ولا ينضبط ما لو فرّق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق النافقة ، ولعمّ جميعها بالمنفعة التجارية ، كل ذلك في ثمانية أيام بعد الموسم ، حاشا ما يطرأ بها مع طول الأيام من اليمن وسواها ، فما على الأرض سلعة من السلع ، ولا ذخيرة من الذخائر إلا وهي موجودة فيها مدة الموسم ، فهذه بركة لاخفاء بها وآية من آياتها التي خصها الله بها )) .

وتحدث عن البيع والشراء في المسجد الحرام فقال : (( وفي أيام الموسم كلها عاد المسجد الحرام – نزهه الله وشرفه – سوقا عظيمة يباع فيه من الدقيق الى العقيق ، ومن البُرّ الى الدر ، الى غير ذلك من السلع ، فكان مبيع الدقيق بدار الندوة الى جهة باب بني شيبة ، ومعظم السوق في البلاط الآخذ من الغرب الى الشمال ، وفي البلاط الآخذ من الشمال الى الشرق )) .

وكان ابن جبير كلما مرَّ بمدينة أو قرية أشار الى إسواقها ، فكان العرب من رجال ونساء يأتون الى ( الثعلبية ) ويتخذون بها سوقا عظيمة حفيلة للجمال والكباش ، والسمن ، واللبن ، وعلف الابل .

وكانت في ( الحلة ) : (( أسواق حفيلة جامعة للمرافق المدنية ، والصناعات الضرورية )) .

وكان شرقي بغداد حافلا بالأسواق ومثل ذلك ( تكريت ) وفي ( الموصل ) (( قيسارية للتجار كأنها الخان العظيم تنغلق عليها أبواب حديد ، وتطيف بها دكاكين وبيوت )) .

وذكر أسواق ( دنيصر ) وحلب ، وحماة ، وحمص ، ودمشق والمدن التي مرّ بها الى أن غادر ( عكة ) متوجها بالبحر الى الاندلس .

وكان للحاصلات الزراعية ذكر في ( رحلة ابن جبير ) وقد تحدث عما وجد منها في مكة المكرمة ، قال : (( وأما الأرزاق والفواكه وسائر الطيبات فكنا نظن أن الأندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألفيناها تغص بالنعم والفواكه كالتين ، والعنب ، والرمان ، والسفرجل ، والخوخ ، والأترج ، والجوز ، والمقل ، والبطيخ ، والقثاء ، والخيار ، الى جميع البقول كلها : كالباذنجان ، واليقطين ، والسلجم ، والجزر ، والكرنب ، الى سائرها ، الى غير ذلك من الرياحين العبقة ، المشمومات العطرة . وأكثر هذه البقول كالباذنجان ، والقثاء ، والبطيخ ، لا يكاد ينقطع مع طول العام ، وذلك من عجيب ما شاهدناه مما يطول تعداده وذكره . ولكل نوع من هذه الأنواع فضيلة موجودة

في حاسة الذوق يفضل بها نوعها الموجود في سائر البلاد ، فالعجب من ذلك يطول .

ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ والسفرجل ، وكل فواكهها عجيب ، لكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبة ، وذلك لأن رائحته من أعطر الروائح وأطيبها ، يدخل به الداخل عليك فتجد رائحته العبقة قد سبقت اليك فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رياه عن أكلك إياه حتى إذا ذقته خُيل اليك أنه شيب بسكر مذاب أو بجنى النحل اللباب )) .

وهذه الفواكه تجلب اليها من الطائف ومن قرى حولها ، أما غيرها فقد أعجب ابن جبير باللبن ، وكل ما يصنع منها من السمن ، ويجلب اليها قوم من اليمن نوعا من الزبيب الأسود والأحمر واللوز .

وذكر الحلوى وهي أنواع غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات شتى ، واللحوم الجيدة التي هي أطيب لحم يؤكل في الدنيا ، والرطب وهو بمنزلة التين الأخضر في شجرة .

هذا ما شاهده في ( مكة المكرمة ) وأما ما رآه في غيرها فكثير ومن أهم الحاصلات الزراعية النخيل وهي معروفة في مصر والحجاز والعراق ، فالبلينة (( كثيرة النخل )) ومثلها الصحراء الشرقية في مصر ، وعفان وبدر في الحجاز ، والقادسية والحلة وزريران في العراق .

وذكر الفواكه اليابسة التي رآها في أثناء رحلته ، في مكة المكرمة وغيرها ، والقمح ، والفلفل ، والقرفة ، والخروع ، والتين ، والزيتون ، والفستق ، والنارنج ، والبلوط ، وذكر شجر المُقل ، وشجر العشر ، وغيرها ،

ولم ينس الحوت ( السمك ) والقرش الذي ينتفع من دهنه في طلاء الجلاب ( المراكب ) .

وكان اللؤلؤ من ثروة بعض البلاد مثل ( عَيذاب ) إذ في بحرها مغاص على اللؤلؤ في جزائر على مقربة منها ، ويكون أو ان الغوص في شهر يونيه ( حزيران ) والشهر الذي يتلوه ويستخرج منه جوهر نفيس له قيمة سنية ، قال : (( يذهب الغائصون عليه الى تلك الجزائر في الزوارق ، ويقيمون فيها الأيام فيعودون بما قسم الله لكل واحد منهم بحسب حظه من الرزق . والمغاص منها قريب القعر ليس ببعيد ويستخرجونه في أصداف لها أزواج كأنها نوع من الحيتان أشبه شيء بالسلحفاة ، فاذا شقت ظهرت الشقتان من داخلها كأنهما مجارتا فضة ، ثم يشقون عليها فيجدون فيها الحبة من الجوهر قد غطى عليها لحم الصدف ، فيجتمع لهم من ذلك بحسب الحظوظ والأرزاق )) .

يتصل بهذا وسيلة التعامل في البيع والشراء وكانت العملة معروفة منذ زمن بعيد ، وقد ذكر ابن جبير بعض أنواعها مما رآه في رحلته ، ومنها الدنانير المصرية ، والدنانير المؤمنية ، والدنانير الصورية ، والدراهم ، والقيراط ، وقد يكون التعامل بالدرهم والدينار في بعض المناطق ، وكان السرو وهم أهل جبال حصينة في اليمن تعرف بالسراة لا يبيعون بدينار ولا بدرهم ، وانما يبيعون بالخرق والعباءات والشمل ، وأهل ( مكة ) يعدون لهم من ذلك الأقنعة والملاحف وما أشبه ذلك مما يلبسه الأعراب ويبايعونهم به ويشارونهم .

أمـا المكاييـل فمنهـا : الاردب ، والقفيـر ، والصـاع ، والأويـة ، والرطل ، والقدح ، وكانت مقاديرها معروفة في زمان ابن جبير .

وتعرض لما كان يلاقيه الناس ولاسيما الذين ينتقلون من منطقة الى منطقة أخرى كالحجاج الذين يتوجهون الى بيت الحرام ، ويهانون في التفتيش وتفرض عليهم الغرامات باسماء كثيرة . فما أن ينزل الشخص من المركب في ميناء الاسكندرية حتى يلقى الاهانة والتفتيش الدقيق بحجة ( المكوس ) قال ابن جبير : (( فكان الحجاج يلاقون من الضغط في استيفائها عنتا مجحفا فيها خطة خسف باهظة ، وربما ورد منهم من لا فضل لديه على تعفته ، أو لا نفقة عنده فيلزم أداء الضريبة المعلومة ، وكانت سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية التي هي خمسة عشر دينارا مؤمنية على كل رأس )) وكان يؤدى على شرب ماء النيل المكس فضلا عما سواه ، ومحا هذه الضريبة السلطان صلاح الدين الأيوبي وكانت مفروضة على الحجاج من مدة دولة العبيديين ( الفاطميين ) .

وكانت الزكاة تفرض من دون أن يحول الحول على المال أو غيره ، وكانت الجزية تؤخذ من اليهود والنصارى .

وكانت الجباية معروفة ، والعشر ، وكان هناك رسم باسم (( ميرة مكة والمدينة )) .

أشار ابن جبير الى بعض السلبيات والتضييق على الناس من الحكام ، وكان الحجاج يلاقون الضيم في كثير من الأحيان بسبب المكس والضرائب المختلفة ، ولكن السلطان صلاح الدين الأيوبي خفف عنهم وعن غيرهم ، ومحا ما أضر بهم . وكان لهذا أثر واضح في الرحلة إذ أشاد